اول رائد مصري حديث

تابع ما قبلهُ

قبل ان نباشر السير يدفئُ الرجال ايديهم وارجلهم على النار ويحذون نعالهم ثم يسيرون خلف جمالهم وهم يغنون. ويكون وهج الشمس قد اشتد فيجعل كل احد يبعد عن اذنيهِ وعنقهِ ما لفها بهِ اتقاء البرد ثم يخلع جردهُ ايضاً الاَّ اذا هبت الريح شمالياً . ويتبارى الرجال في النكت والجري وامارات البشر على وجوههم . وينقسمون اثنين اثنين او ثلاثة ثلاثة يتحدثون في امورهم الخاصة والعامة . واما اسير امام الجمال او وراءها من وقت الى آخر لكي اتحقق اننا غير مخطئين في اتجاهنا ولكي اشعر بلذة الانفراد . ووقت الغداء لا نحطُّ الرحال لان الجمال لا تأكل الاَّ مرتين في اليوم فاذا كنا قد خرجنا من واح وخبزنا طريٌّ تناول كلٌّ منا رغيفاً او نصف رغيف فاكلهُ وهو ماشٍ مع قليل من التمر وبعد ذلك يجف الخبز ثم ينفد فنكتفي بالتمر لانهُ معنا دائماً

وقد كان معي جمل على رحلهِ حوائجي حتى اذا اضناني التعب اصعد اليهِ واستلقي فيهِ فاطلق عليهِ احد رجالي اسم «الكلوب» . استفقدوني ذات يوم وقت الغداء وسأل بعضهم عبد الله ان كنت قد اخذت حصتي من الخبز والتمر فقال ان البك يتغدى اليوم في «الكلوب». ولا يصعب على المرء ان يقيل في الهودج ولكن السير وراء الجمال سهل لان معدل سيرها ميلان ونصف ميل في الساعة . والركوب حينئذٍ اصعب من المشي

وبعد الظهر يشتدُّ الحر ويبطئ سير الجمال والرجال . وفجر المساء يبرد الهواء فتسرع الجمال ولاسيما قبلما تحط الرحال ويحدوها الرجال فتزيد سرعة

وحالما تغرب الشمس ادنو من الدليل واسألهُ عن الجهات والبوصلة في يدي مخافة ان تضل بين غروب الشمس وظهور النجوم . وحينما يرخي الليل سدولهُ نضيء مصباحاً يسير بهِ الدليل امام القافلة . والظاهر ان الجمال تسرُّ برؤية المصباح امامها فتنشط لاتباعهِ

اذا كانت الامور ميسَّرة كلها مشينا اثنتي عشرة ساعة الى ثلاث عشرة والاَّ اكتفينا باقل من ذلك وفي نهاية المرحلة آمرُ بالوقوف فتبرك الجمال حالاً لترفع الاحمال عنها . ولا بدَّ من اتخاذ الحيطة التامة حينئذٍ لان الرجال يكونون متعبين فلا يعنون بانزال الاحمال وما فيها من الآلات الدقيقة . واذا خيف من اشتداد الريح ليلاً وُضعت الاحمال

بعضها فوق بعض لتكون سداً في وجه الريح وتنصب الخيام في مثلث وتضرم النار ويغلى الشاي وحينئذٍ نعرف قيمتهُ . والبدو يحضرونهُ باغلاء حفنة منهُ وحفنة من السكر في نحو رطلين من الماء فيكون لهُ فعل عجيب في انعاش المتعب من السفر وانهاض قوتهِ ويسرع الرجال في تقديم العلف الى جمالهم وتحضير العشاء وتناولهِ ثم يستلقون وينامون اما انا فاقابل بين الساعات الست التي معي واديرها واكتب عن الصور الفوتوغرافية التي صورتها والروامز الجيولوجية التي جمعتها واغيّر الشرائط في آلة التصوير للسنما واكتب يوميتي

بلغنا بئر الظيغن في السادس والعشرين من مارس واقمنا يوماً هناك بسبب الهبوب. والواضح في الاذهان ان الصحاري ثابتة على حالٍ واحدة على كرور الازمان ولكن ليس الامر كذلك. فناسار رولفس الى الكفرة سنة ١٨٧٩ قال انهُ وجد في طريقهِ بالسماع من العرب بقعة خضراء واسعة اما الآن فليس هناك الاَّ قليل من النخل في بئر الخرش وكثير من الحطب. وما قالهُ رولفس يؤيدهُ ابو حليقه من الكفرة فقد قال لي انهُ لما كان صغيراً كان ابوهُ يأخذهُ معهُ الى الكفرة حينما يذهب لجلب التمر منها وكانت تلك المسافة تقطع في خمس ليال وثلاثة ايام وحينما يبلغون الظيغن تجد دوابهم عشباً ترعاهُ . فاذكرهُ رولفس صحيح ولكن تغيرت الحال في خمس واربعين سنة وسبب ذلك فيما يظهر نضب المياه الارضية فصار ما كان نابتاً هناك حطباً يابساً

ان سيرنا من بئر ابو الطفل الى الظيغن اثبت لنا خطأ ما يقدرهُ الانسان في قطع الصحاري فاننا اتخذنا الحيطة من كل وجه ومع ذلك نفد وقودنا ومات جمل من جمالنا وزرح جملان آخران ونفد علف الجمال فجعلنا نطعمها من الظيغن الى الكفرة من خوص النخل الذي قطعناهُ من الظيغن وهو علف لا يغذي

ورصدت الشمس في الظيغن بالثيودوليت مراراً فثبت لي بالحساب ان الظيغن ابعد الى جهة شرق الشمال الشرقي ٠٠ كيلو متر مما قالهُ رولفس. وكان قولهُ مبنياً على ما قالهُ لهُ الادلة وهو في تسربو لا على ارصاد فلكية ووجدت ان ارتفاع الظيغن ٣١٠ امتار فوق سطح البحر

ومن الظيغن الى هواري اربعة مراحل وهي ابعد واحات الكفرة شمالاً وقد لقينا في منتصف الطريق اشد الزوابع الرملية التي صادفتها في حياتي . عصفت الرياح فجأة بعد نصف الليل بثلاث ساعات ونصف ساعة ولم يكن الاَّ قليل حتى قوّضت خيامنا ووقعت خيمتي على رأسي وجعلت الرياح تسفي الرمال عليها وتزيد ثقلها ثقلاً حتى كدت اختنق

ولكنني مسكت باحد الاوتاد ورفعت به بعض الخيمة عن وجهي وبقيت على هذه الحال ساعتين وكان الرمل يدخل من فروج الخيمة ويصل اليّ كرصاص البنادق . وذاقت الجالة والجمال من الشدة امرّها . ووجدتُ في الصباح ان اكثر آلاتي قد تهشم وانكسر خرنومتري الصغير ولو اصاب عمود الخيمة خرنومتري الكبير لكسرهُ ولكانت النتائج العلمية من رحلتي غير ما هي الآن . وهذا العمود لم يخطئهُ الاَّ جزءًا صغيراً من البوصة . ومن ثم يظهر ما للصدف من اليد في نجاح الروّاد . استرحنا يوماً في هواري بعد العاصفة ثم استأنفنا السير الى الكفرة

في الوصول الى الكفرة شيءٌ يستوقف النظر مشبنا اليها في ارض متموجة تنطوي امام السائر كالسجل يحيط بها نجد قليل الارتفاع يتكون منهُ افقها . وبينما المرء سائر ينكشف هذا النجد امامهُ عن مبانٍ لا يكاد يفرق بينها وبين الصخور والرمال لشدة الشبه بين الفريقين شكلاً ولوناً . هذه مدينة التاج مقر البيت السنوسي في الكفرة . حينما دخلناها رأينا الارض وراءنا تغيب عن نظرنا فجأةً ويقوم مقامها وادي الكفرة . وهو غور قطرهُ الاطول او بعون كيلو متراً والاقصر عشرون ترصّعهُ اشجار النخيل وتنتظم فيهِ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي ست محلات وهي بويا وبوما وجوف والزردق وطلاب وطلاّب . والى جانب جوف بحيرة واسعة يترقرق ماؤها الازرق فيبهج النظر . وهذا الماء الغزير وفي وسط قفر اجرد نعمة لم تكمل لانهُ ملح ولقد وجدنا في الاغتسال فيهِ لذة لم نجدها في بحر ولا في نهر ولا في حمام

لما دخلنا التاج لاقانا الاصدقاء بمزيد الترحاب . كان السيد محمد العابد ابن عم السيد ادريس رئيس السنوسيين في كفرة مريضاً بالنقرس فاستقبلنا السيد صالح البكري والقائمقام والسيد محمود الجدّاوي ووكيل السيد ادريس وكثيرون من الاخوان وحيّونا باسم السيد العابد وساروا بنا الى دار السيد ادريس وقد نزلت فيها في رحلتي الاولى الى الكفرة منذ سنتين فشعرت الآن كانني في بيتي ولم اكد استريح من وعثاء السفر حتى جاءني عبد من قبل السيد العابد ليذهب بي اليهِ للعشاء وهو نفس العبد الذي مشى بي منذ سنتين فسرنا في الطريق الذي سرنا فيهِ اولاً الى البيت الذي دخلناهُ حينئذٍ فخيّل اليّ ان الزمان انتفى من الوجود او رجع بنا القهقرى

بيت العابد لفز من الالغاز مراديب وراءها الغرف التي يسكن فيها اهلهُ وخدمهُ .

خروج القافلة من الكدرة

وصلنا بها الى غرفة دخلتها قبلاً ارضها مغطاة بالبسط الفاخرة والوسائد المطرزة وعلى جدرانها الساعات الدقاقة والبارومترات والثرمومترات التي يفاخر فيها مضيفي . اما الساعات وهي اثنتا عشرة على الاقل من اقدار مختلفة فلا انتظام في سيرها واذا دقت لم تدق معاً بل بعضها بعد بعض فتذكرني بساعات الكنائس والابراج في اكسفرد حينما كنت اسمعها وهي على ابعاد مختلفة فيأتي صوت الواحدة بعد صوت الاخرى . وجاء السيد صانع البكري ليسليني ويعتذر عن السيد العابد ثم جيء بالطعام وهو مما تشتاقهُ الالهة او البشر الذين قضوا وقتاً طويلاً في القفر الاجرد - رز مفلفل وحمل حنيذ وخضراوات مطبوخة وخبز سميذ ولبن رائب وحلوى بدوية ثم القهوة ولبن ممزوج بزبد اللوز وثلاث كؤوس من الشاي مطيبة بالعنبر وماء الورد والنعناع

استرحت يوماً ثم جلت في وادي الكفرة فزرت القرى والزاوية وهي اقدم مدارس السنوسي واول بناء بني في الكفرة . وزرت السوق التي تقام كل اسبوع يرى الانسان فيها اشياء متباينة معروضة معاً فيرى مثلاً خرطوش البنادق وتاريخهُ منذ ثلاثين سنة والى جانبهِ مربى الطاطم الايطالي وارداً من بنغازي واقمشة بيضاء وزرقاء واردة من مصر والجلود والعاج وريش النعام من وادي . الاَّ ان بضائع الجنوب هذه قلَّ بيعها الآن في الكفرة فلا تباع الاَّ اذا جاء بها التجار قاصدين مصر او طرابلس الغرب فضُّوا من مواصلة السير لسبب من الاسباب

وقد كان عصر الكفرة التجاري قبل استرجاع السودان فانها كانت حينئذٍ سوق واداي ودارفور ترد المتاجر اليها وتنقل منها شمالاً . والآن يصل اليها ما يمنع مرورهُ او اصدارهُ من السودان مثل عاج اناث الافيال والاسنان التي وزن الواحد منها اقل من ٤٠ رطلاً . واكثر رؤساء الزوايا الكبيرة يأتون الكفرة للزراعة فيزرعون فيها الشعير والذرة اما السنوسيون فيزرعون العنب والموز والبطيخ ونحو ذلك من الخضراوات التي يجدها المرء فاكهة منعشة بعد الضرب في الصحراء ويزرعون ايضاً النعناع والورد ويستخرجون روحيهما لانهما لازمان في تكميل شروط الضيافة . وعندهم قليل من شجر الزيتون فيعصرون الزيت منهُ . ولكن طعام البدو الذي هو قوام معيشتهم التمر ولذلك ترى النخل كثيراً في وادي الكفرة . والتمر هو الشيء الوحيد الذي يصدر من تلك الواحات . اما سائر الحاجيات والكماليات فترد الى الكفرة من الخارج كالشاي والسكر والرز والدقيق والاقمشة

والمساكن هناك بسيطة تبنى بالحجارة وتبيض من الداخل وتوضع فيها مقاعد تغطى بالبسط اليدوية والمساند . واذا كان صاحب البيت غنياً وجدت فيه غرفة للاستقبال ارضها مغطاة بالبسط العجمية ومساند الحرير وقد يكون فيها غراموفون وصفائح عليها اغاني عربية مصرية

والاعمال اليدوية يعملها العبيد غالباً وقد غلا سعرهم حديثاً لقلة ورودهم من وادي حلفا ذهبت الى يوقه سنة ١٩١٦ عُرضت عليَّ فتاة من الرقيق بمائة وعشرين فرنكاً اما الآن فثمن مثلها من ٣٠ جنيهاً الى ٤٠ . والذكر ارخص من الانثى . واذا استولد رجل امة من عبيده فولدت صبياً اصبحت حرةً بولادته فاذا كان الرجل شيخ قبيلة وكان هذا الصبي بكرهُ صار شيخ قبيلته بعدهُ ولو كان اسود لان لا شأن للون في اعتبارهم . ويتأنق العبيد في لبسهم كاسيادهم . ولعلي كاجا عبد السيد ادريس المنزلة العليا عندهُ والناس يحترمونهُ اكثر مما يحترمون كثيرين من الاحرار . ويباح للعبد ان يشتري امة . سألت علي كاجا كم ثمن العبيد الآن فقال شاكياً قد غلا سعرهم كثيراً فبالامس اشتريت جارية بار بعين جنيهاً . قال ذلك كأنهُ لم يكن عبداً في زمانه

اقمت في الكنفرة نحو ثلاثة اسابيع في ضيافة السيد العابد وغيره من الاعيان . وخلاصة مباحثي العلمية في هذه المرة ان الكنفرة ابعد ار بعين كيلو متراً الى جنوب الجنوب الشرقي مما اثبتهُ رولفس من ارصاد ستكر ووجدت ارتفاعها كما حققهُ رولفس اي ان ارتفاع بوما في اسفل الوادي ٤٠٠ متر وارتفاع التاج ٤٧٥ متراً

وبُعيد وصولي الى الكنفرة سمعت اخباراً اضطرتني الى تغيير خطة رحلتي فقد كنت عازماً ان اذهب بطريق القوافل من الكنفرة الى وادي وهو طريق لم يسلكهُ احد قبلي من غير اهل البلاد ولكن بلغني ان كشافة فرنسوية قدمت من وادي الى منتصف الطريق بين وادي والكنفرة وسمعت اخباراً مبهمة عن الواحتين المفقودتين وقيل لي انهما الى الشرق من طريق وادي ولم ترَ لها رسماً في خريطة من الخرائط فغيرت خطة سفري وعوَّلت على الذهاب الى السودان لعلي اكتشف هاتين الواحتين في طريقي فاكون قد عملت عملاً يذكر . وتغيير الخطة سهلٌ فكراً ولكنهُ صعب عملاً فانت ايها حليفه صاحب الجمال التي استأجرتها من جالو ليذهب معي الى وادي ابى ان يذهب بطريق عوينات قائلاً انهُ لا يخاطر بنفسه وابى ان يدع رجالهُ وجماله تذهب معي

واتاني سليمان ابي مطاري وهو تاجر غني ليصرفني عن هذا الطريق فقال لي ان اخاهُ محمداً سار منذ ثمان سنوات في هذا الطريق فهلك هو والقافلة قتلوا على تخوم دارفور مع انهم لم يسيروا في الطريق الذي انا عازم على السير فيهِ بل في طريق اسلم واسهل من طريق عوينات الى سريجا . اما الطريق الذي انوي الذهاب فيهِ فيمرُّ في بلاد لم تطأها رجل بدوي والدفّه (قفر لا ماء فيهِ) بين عوينات واردي طويلة كثيرة الخاطر فالقافلة التي تضرب فيها يرحمها الله فان جمالها تقع كالعصافير في ريح السموم واذا سلمنا في الطريق فمن يعلم كيف يستقبلنا سكان البلاد التي نصل اليها فيجب ان لا اخاطر بنفسي ولا ادع الطريق السليم طريق القوافل الى واحتجا وأبشه . فشكرتهُ على نصحهِ وانا واثق انني لست عاملاً بهِ . ثم بحثت في هذا الموضوع بعد يومين مع ابي حليقه فلم يقنعني ولا اقنعتهُ واخيراً لما رأى اصراري على الذهاب بطريق عوينات وان السيد العابد يوافقني على ذلك رضي ان يؤجرني بعض جماله باجرة الجمال كلها وان يدبر رجالاً يذهبون معي فاتفقنا وانا لا اعلم ما خُبِّئَ لي في لوح القدر ولكن حب كشف المجاهل تملكني فسلَّمت نفسي للتقادير

في الثامن عشر من ابريل صارت قافلتنا على اهبة السفر فاتى كثيرون من الاخوان ورؤساء البدو لتوديعي وودع رجالي اصدقاؤهم وهم يحسبون انهُ الوداع الاخير ويقولون اذهبوا بحفظ الله المقدَّر مقدر وعسى الله ان يأخذ بيدكم ويكون معكم . قالوا ذلك قول من يرى الهلكة امام عينيهِ ويدعو للنجاة منها

قطعنا الحيد الجنوبي فوق الكثيبة فانبسطت امامنا الارض صحراء ناعمة الرمل دقيقة الحصى . وفي العشرين من ابريل قطعنا حزوناً كثيرة الحجارة ورأينا سنونة في الصباح وباشقاً في الاصيل . الليالي شديدة البرد والحر وسط النهار يزعق النفوس فصرنا نسير بعيد نصف الليل ونستريح حينما يشتد الحرُّ . وفي الثاني والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمال ارتفاع الكثيب منها ثلاثة امتار الى عشرة مغطاة بحجارة سوداء ثم رأينا عن يسارنا سلسلة من التلال تمتد من الشمال الى الجنوب الغربي فتقطع طريقنا فصمَّدنا فيها واذا امامنا نجد سرنا فيهِ النهار كلهُ واسمهُ وادي الخاريج ورأينا هناك قشوراً من بيض النعام واتاني رجل من رجالي بفرختي نسر فامرتهُ ان يردها الى عشها

وفي الثالث والعشرين من ابريل وصلنا الى كثبان من الرمل المنهار عسرة المرتقى وجزنا غور نوراو ورأينا جبال اركنو ممتدة امامنا

مرَّ بنا ثمانية ايام لم ننم في اليوم منها اكثر من اربع ساعات وحالما كنا نشرع في

السير كنت ارى رجالي يغمضون عيونهم وينامون على الرمال ولو نصف ساعة والجمال تابعة الدليل ومصباحهُ القنديل اما انا فتتلقى على الآلاتي كان يحرمني من النوم معهم

ولقد كابدنا مشقة كبيرة في قطع كثبان الرمال القائمة امامنا ولم نكد نتم قطعها حتى قابلتنا الجبال كأنها من قلاع العصور الوسطى وقد كاد ضباب الصباح يحجبها عن عيوننا وبعد دقائق قليلة حولت الشمس ذلك الضباب الاغبر الى شعاع وردي . وفي الرابع والعشرين من ابريل قطعنا ٣٧ كيلو متراً فبلغنا جبل اركنو

اركنو جبل من الحجر الخشب (الغرانيت) يعلو خمسمائة متر عن سطح الصحراء المجاورة لهُ وهو قطن مخروطية متصلة من اسفلها . يلتقاهُ من طرفهِ الغربي ومررنا حول هذا الطرف فوصلنا الى مدخل وادٍ فيهِ متجه شرقاً وقرب مدخلهِ شجرة وحيدة من نوع

جبل اركنو

يسمى هناك شجر الاركنو وقد اطلق اسمهُ على الوادي الذي هناك فنصبنا خيامنا الى جانب هذه الشجرة وارسلنا الجمال الى الوادي لتشرب وتأتينا بالماء وكنا في حاجة شديدة اليهِ. ولحال اتانا اناس سود من سكان تلك البلاد فاحسنا ملتقاهم ودعوتهم للأكل معرجالي . الجبل قاحل لا ينتظر ان يكون فيهِ وادٍ خصب مسكون والواقع ان هؤلاء الناس لا يقيمون فيهِ السنة كلها بل يأتونهُ بجماهم في فصل الربيع لترتع فيهِ ثلاثة اشهر ويتركونها فيهِ وحدها بعد ان يسدوا مدخل الوادي بالصخور

وواحة اركنو في اولى الواحتين المفقودتين اللتين سمعت اخبارها وكان من نصيبي ان اكون الاول في رسمها. وقد يصير لهذا الوادي شأن حربي في المستقبل لانهُ واقع في ملتقى تخوم مصر الغربي بتخمها الجنوبي

سنأتي البقية